حديث القرآن والإنســـان

حديث القرآن
والإنسان

القرآن الكريم أُنزِلَ وحُفِظَ من أجل الإنسان.

فحديثه عن الإنسان ـ خَلْقِه ورِزْقِه، وحياتِهِ ومَوْتِه ـ حديثٌ هَادِفٌ يُرَادُ به الإنسان في ذاتِ نفسه، وفي صِلَته بغيره.

فهو لمصلحته ـ وليس مُجَرد إخبار بما كان وما سيكون من أمره فإنَّ الإخبارَ ـ عن عِزَّةِ الله وقُدرته وعلمه ـ بلاغٌ للإنسان؛ لتبصرته بما يجب أن يكون عليه من معرفةِ ربِّه، والاهتداءِ بِهَدْيه.

فالقرآنُ ـ في جميع آياته ـ هُدَىً للناس، وإن بَدَا أنَّ ما يخص الإنسان آيات محدودة في القرآن.

فالإنسان مَلحوظ ـ لا في الآيات التي تَذْكُره فحسب ـ بل في جميع آيات القرآن؛ باعتبار أنه المخاطَب والمراد بما يتحدَّث عنه، أو يوحى به.

ومَن أحسن التدبر أَيْقَنَ أنَّ له ـ في كُلِّ آيةٍ من آياتِ القرآن ـ تبصرة وتذكرة وعِبرة.

والإنسانُ وثيقُ الصِّلة بالكَوْنِ الذي يُحيط به، ويعيشُ على أرضه.

وحديث القرآن عن آيات الله ـ في الأرض وفي السماوات ـ فَيَّاضٌ بالعطاء لأُولي الألباب، الذين يذكرون الله ويتفكَّرون.

وبذَا لا يُعزَلُ الإنسان عن آيات الله، في أيِّ شأنٍ وفي أيِّ حالٍ كان.

حتى وإنْ أعرضَ عن هذا الذِّكرِ وَأَدْبَر.

فإنَّ إعراضَه وإدبارَه لا يُخرجه عمَّا يُحيط به من آيات الله، في نفسه، وفي الآفاق مِن حوله، وهي تتَّسق مع آيات الذِّكر الحكيم في مخاطبة الإنسان وتبصرته.

فالمُعْرِضون أنَّى يُؤفَكون ؟ وأنَّى يُصْرَفون ؟

فأيُّ إعراضٍ يمكن أن يكون عن أرضٍ وسماءٍ، وهواءٍ وماءٍ ؟

والأرض تُقِلهُ، والسماءُ تُظِلهُ، وله من الماء والهواء، والزروع والثمار، عطاءٌ من الله أي عطاء، بغيره لا تقوم له حياة.

والقرآنُ - وهو يخبر عمَّا يكون من بعث وحساب وجزاء - يخاطب المنكرين بواقعٍ لا ينفكُّ عنهم ولا يغيب.

وفي الخطاب تبصرةٌ وذكرى لكُلِّ عبدٍ مُنيب.

﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.[1]

هذا ما قاله المنكرون.

فَبِمَ أَمَرَ الله أن يُخَاطَبُوا به ؟

أمر أن يُخَاطَبُوا بآياتٍ - لا تغيبُ عنهم، ولا تخفى دلالتُها في أنفسهم، وفي الآفاق من حولهم.

(1) المؤمنون: ٨١-٨٣.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.(1)

بَلْ ربَّما رأينا القرآنَ يُخاطب الإنسان بآيات الله في نفسه؛ ليعرف قُدرةَ الله في خَلْقه وبَعثه.

﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ ﴾.(2)

هذا الترابط بين فطرة الإنسان وفطرة الكون، ليس القرآن دخيلاً عليه، أو بعيداً عنه.

وجميعُ آياته تدعو إلى التمسك بالفطرة التي فَطَرَ الله الناس عليها.

ليتسق الإنسان مع فطرة كل شيء في التسبيح بحمد ربِّه.

ويستجيب ـ بإرادته ـ لما يُدعَى إليه، من صِدْقِ الوفاء لِمَا فُطِر عليه، دون عِوَجٍ أو مَيْلٍ. وهو يتعلَّم ـ من آيات الله في الآفاق وفي الأنفس ـ ما يدعوه إلى أن يُسْلِمَ وجهه لربِّه.

---

(1) المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩.

(2) مريم: ٦٦، ٦٧.

﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ
يُرۡجَعُونَ ۝٨٣ ﴾.[1]

ويتلو القرآنَ فلا يرى القرآنَ قد أخذه بعيداً عمَّا يرى دلالته في نفسه وفي الآفاقِ، من وضوحِ الحقِّ، وبيانِ السَّبيل.

* * *

(1) آل عمران: ٨٣.